الطاووس

الدخان يتراقص بوهن، صاعدًا من عود بخور كشبح لا يجد مخرجًا إلى العالم الآخـر. تأملت هناء بأعين منتفخة مرهقة، حياته القصيرة المحترقة ثـم ذوبانه وتماهيـه التام مع طبقات الهواء المعلقة بالسـقف. حتى كادت الغرفة تختنق به، فظنت هناء لوهلة أنها تحلق بين سحب كثيفة ولم تعد ترى شـيئًا. لم تكن الغرفة كبيرة، ولكنهـا ذات جدران عالية وألوان هادئة بين الأزرق والبنفسجي. ذكّرها ضعف الإضاءة بحجرات الأطباء النفسيين. في منتصـف الجدار المقابل للبـاب، لوحة وحيدة يغلب عليها الأصفر، لم تتبين محتواها في البداية جيدا لحكة في أسـفل جفونها المنتفخة. وفي الركن مكتبة صغيرة بها بعض الكتب المهترئة. كانت غرفة خالية من الأثاث فيما عدا ثلاثة كراسٍ ومنضدة دائرية حديد بالمنتصف.

عادت المرأة إلى الغرفة بفم مفتوح، فيما تخيلت هناء أنها تأخرت لترتدي السوتيان، لكنها لم تفعل. أكدت المرأة عليها أن من الأفضل ألا يعلم أحد بقدومها إلى هذا المكان، وأن الإعلان كان قديمًا للغاية، وأنها استجابت لها

لسوء الوضع. فأجابت هناء بهمهمات توضح أنها متفهمة.

لم تكـن هناء تحسـم ترددها أبدا حيال أي شيء، لذلـك ترددت كثيرًا في البدايـة قبل أن تطرق الباب ذا الرسـوم الدائرية البارزة الخالية من أي ملمـح يدل على ما خلفه. طالت وقفتها، حتى اسـتطاعت أخيرًا التقدم، فانفتح الباب بعد برهة وظهرت المرأة الخمرية بوجهها المسـتدير المبتسم، فقابلته هناء بوجوم وقلق، ثم حاولت أن تتذكر سريعًا اسم الجريدة التي وجدت الإعلان بها، ولكن المرأة بادرتها السؤال.

– مدام هناء؟

انفرج الباب ودعتها المرأة للدخول في بشاشـة. كانت ترتدي فسـتانا قصيرا فوشـيا يكشـف فخذيها الممتلئتين بابتذال، فاستطاعت هناء رؤية الدهون المتراكمة في أعلى فخذها ترتج بينما تسير أمامها إلى ما بدا لها غرفة الاستقبال. وفكرت أن برغم كل هذه الدهون، إلا إنها تحمل مؤخرة مثيرة، ويبدو إنها تعرف أهمية ذلك.

وصلتا لباب الغرفة، ووقفت المرأة قبالتها بكامل جسدها لأول مرة. لم تكن ترتدي سـوتيانًا، فقالت هنـاء بلا وعي، زوجي في طريقه إلى هنا. فأجابت المرأة بأنها بالطبع تعرف ذلك وأن الدعوة كانت لهما معًا. النهدان الصغيران كانا يهتزان مع كل حرف تتفوه به، وشـعرت هناء برغبة ملحة في اعتصارهما بقوة كثمرتي ليمون طريتين.

دعتها المرأة للجلوس، وفور جلوسها، لاحظت هناء بابًا قصيرًا بجانب المكتبة في أقصى الغرفة، مطليًا بنفس لون الجدار، فكان مختفيًا. وثبت من مكانها تبحث عن قطط أسفل قدميها وقالت إنها تخشى القطط كثيرا وإنها بالتأكيد تدخل وتخرج من هذا الباب. فضحكت المرأة، ثم طمأنتها أنه هنا لأغراض أخرى.

صمتت هناء وجلستا أخيرا متجاورتين، وذهبت عنها أفكارها لبرهة، حتى إنها اجتهدت لتتذكر سبب قدومها لهذا المكان. ثم لاح الإعلان الصغير في الجريدة بالأفق، وتذكرت أنها جاءت بعد إلحاح كثير حتى وافق زوجها الذي لم يتحمس في البداية، وأبدى ضيقه من رغبتها. ولكنها لم تستسلم كما اعتاد وازداد إلحاحها، ثم ما إن طفح بها الكيل حتى بدأت في إطلاق التهديدات. فانصاع كرها وبطنه المنتفخ يئن.

لم تنتظر هناء حتى تبدأ المرأة حديثها، وقالت برجاء:

– مش عايزه أسمع نهنهته بالليل تاني!

– أكيد ده بيزيد توترك.

– بيخليني أكره إني ست.

نظرت لها المرأة في تفهم وربتت على كتفها. بدأت الحكة في جفونها تزيد، وضاق تنفسها. رفعت رقبتها لإيجاد المزيد من الهواء وسط هذا

الدخان الكثيف، فرأت السقف أسود. جعلها هذا تنتبه بشدة إلى ثقل الليل على أعصابها لسنوات.

وصل الزوج حسب الميعاد المتفق عليه، وجهه جامد خال من التعبيرات. عرفت هناء أنه لا يزال مصدوما من فكرة قدومه. فكرت أن تهدئ من روعه ولكنها تراجعت وتركته ليواجه الموقف بمفرده. اهتز صدر المرأه بقوة وهي تقف لترحب به، فأجابها بكلمات مبهمة مقتضبة. ثم جلس بجانب هناء، وسحب سيجارة من علبة فاخرة بجيب بدلته. وبعد أن التحم دخان سجائره بالسحب الكثيفة، وصارت أكثر ثقلا، بدأ الحديث:

- أنتِ شغالة هنا لوحدك؟

- النهاردة بس، مساعدتي في أجازة.

فردّ ساخرا:

- شكلك بتحبي تساعدي الناس.

نظرت المرأه إليه طويلا، تفرست في ملامحه وضاقت عيناها الواسعتان. ثم فتحت فمها ربما لتعترض ولكنها أطبقته مرة أخرى. وأدارت وجهها ناحية هناء التي أغلقت عينيها تماما وأسندت رأسها على يديها. فقالت المرأة بعد برهة في محاولة لتهدئة الأجواء:

- إحنا هنا علشان نتكلم شوية مع بعض.

– اللي أعرفه إني هنا علشان أثبت لك رجولتي!

ثم وقف وفك حزام سرواله في هدوء وفتح زر بنطلونه، وأنزل ملابسه حتى ركبتيه، ثم مسك عضوه الضخم وقال بهدوء:

– شايفه ده؟ شغال كويس وممكن تسأليها!

وأشار إلي زوجته التي بدا عليها الغضب، فنظرت لها المرأة متسائلة:

– الكلام ده صحيح؟

فأجابت بحدة:

– جربي لو عايزه!

سكن المشهد تماما حتى ارتدى الزوج ملابسه مرة أخرى. وتجول ببصره في الغرفة وهو يزوم بأصوات خافتة كمن يلقي تعويذة لا أصل لها. ثم وقف أمام اللوحة(*) الوحيدة وحدق بها طويلا. ولما طال وقوفه، نغز الفضول هناء، فتبعته ووقفت خلف كتفه الأيسر تحدق بدورها وكأنها مفتاح السر. كانت لوحة جرداء وتبدو السماء شاحبة في أعلاها بخطوط زرقاء باهتة وكأن الليل داهمها على عجل. وفي أقصى الشمال عين تنبثق من السماء وتُشرف على الحياة بشفقة. أسفل اللوحة شيء يشبه آلة موسيقية

(*) لوحة الديك والطاووس للفنان حامد ندا.

لم تعد تصدر منها الأصوات، يقف فوقها ديك يحاول الطيران. وبأسفل الآلة الموسيقية، عين مرسومة بعناية بأزرق يشبه كحل النسوة من الصعيد، عين ميتة بلا روح.

يسير آكل النمل في اليمين بهدوء ولا وجود لنمل في طريقه. وأعلاه تنام سيدة ممتلئة الفخذين ذات مؤخرة مثيرة، وصدر صغير يشبه ثمرتي الليمون، عارية، تستحم بضوء شمس غير مرئي ولا تكترث لشيء. بجوارها امرأه طويلة نحيفة، جافة العود. قسمتها الرغبة من الخصر بالغ الرقة وامتدت ذراعاها على الرمال وساقاها منفرجتان. وبينما يقبع فوقها طاووس عملاق طويل الذيل ويلتهمها بمنقاره الكبير، انعكس ظله صغيرًا كدجاجة فوق الرمال. وفي عمق اللوحة، أسفل السماء، بيوت بعيدة، لا تدري شيئًا عن هذه البقعة من العالم.

قبل أن تشيح هناء بنظرها، لمحت فراشة شاحبة كرماد حريق تطير بجانب رأس الديك، فاشتدّ ثقل الجفون الملتهبة ورأت نارًا تشب في آكل النمل والدخان الأسود يتطاير، وينتشر حول السحب الكثيفة، ساحبا إياها إلى الأسفل لتهطل الأمطار. في تلك اللحظة، تصاعدت موسيقى من الآلة بالتدريج، حتى صمت الآذان. سحبت الطاولة الحديدية ورفعتها بسرعة، وهوت بها على رأس زوجها بعنف. تبعتها بعدة ضربات بعد سقوطه أرضًا.

وقفت المرأة دون اندهاش، وقامتا بسـحب الجثة معًا إلى داخل جوف البـاب القصير، ثم أغلقتا الباب بقفل ثقيل. ثم غرقا معا فوق السـجادة التي كادت تتشـبع بالدماء، ويدا هناء تعصرا نهديّ المرأة كثمرتي ليمون، وتتأوه بشراسة.